الظاهرة الإعجازية في القرآن الكريم من منظور حديث
- الترتيب المعجز في القرآن الكريم -

الأستاذة : نوال لخلف*

تحدّى القرآن العرب على أن يأتوا بمثله، فعجزوا، وأمروا باللغو فيه، حتى لا تسحرهم كلماته وعباراته.

وكان العرب أيام نزول القرآن الكريم يرونه كلام ساحر أو كلام مجنون، وكانت تلك أول إجابة عن أول قضية واجهها العقل العربي.

ثم تعرف هذه القضية منحى آخر، عندما نضج العقل العربي، واحتك بغيره من الثقافات فحاول أن يقدم عدة تفاسير للإعجاز القرآني بما أوتي من أدوات وقدرات.

وكان من نتائج ما سبق، تعدّد الدراسات المتعلقة بهذه القضية، وتنوع اتجاهاتها، يمكن تلخيصها في مرحلتين أساسيتين :

- مرحلة الانبهار والدهشة، وتمثلها القرون الهجرية الثلاثة الأولى.

*. أستاذة بالمدرسة العليا للأساتذة، جامعة الجزائر.

– مرحلة التأمل والإنتاج، وفيها تبرز المحاولات الأولى للإجابة عن سؤال جوهري : أين يكمن إعجاز القرآن الكريم ؟ هل في أمر خارج عنه أم بأمر بداخله ؟.

الإعجاز خارج النص : ظهر خاصة مع فكرة الإعجاز بالصرفة، مع إبراهيم النظام المعتزلي الذي رأى أن الإعجاز يعود إلى قدرة إلهية منعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، لكن هذه النظرية قد ثبت بطلانها، فما معنى أن يتحداهم الله تعالى، ويسلبهم القدرة على الاستجابة ؟.

أما الإعجاز في داخل النص : فقد تجلى في نظريات كثيرة، أبرزها نظرية "النظم" لعبد القاهر الجرجاني [ت471 هـ]، التي تعد أكثر النظريات نضجا وتطورا، استطاعت أن تؤثر في غيرها من النظريات لأنها رأت النص القرآني من الداخل، فاهتمت بأسلوبه وبيانه المعجز، وتوصلت في الكثير من نتائجها إلى علوم اللغة العربية حديثا.

لا يعني ما سبق أن قضية الإعجاز، مرحلة انتهى عهدها في العصور الغابرة بل إن إعجاز القرآن صفة جوهرية ملازمة للخطاب القرآني، لا ترتبط بعصر من العصور، أو بجيل من الأجيال، وهي في هذا العصر أوضح وأجل، بسبب تطور العلوم، واكتشافات العصر.

يقول مالك بن نبي : "إن مسألة إعجاز القرآن الكريم أعقد مشكلة يمكن أن يعانيها العقل الحديث – كما يسمونه – حتى بعد أن يتمكن من إرساء كل دعامة يقوم عليها إيمانه بصدق نبوة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم"[1].

---

1. مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية، تر عبد الصبور شاهين، دار الفكر – دمشق 2000 – ص. 26.

لذلك لا يمكن حصر إعجاز القرآن الكريم في الإعجاز البياني أو التشريعي، أو العلمي، أوغيره... لأن معنى ذلك تحجيم جوانب الإعجاز وتحديدها، وإنما إعجاز القرآن في ألا ينتهي إعجازه وإعلان تحديه إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها.

أكثر من هذا تتلاحم جوانب الإعجاز وتتداخل، لتؤكد على بناء منسجم ومتماسك، وعلى تخطيط مسبق للخطاب القرآني كما سيتبين أكثر من خلال دراسة بعض أوجه الإعجاز- الإعجاز الصوتي والإعجاز العددي والإعجاز الترتيبي والانسجام في الخطاب القرآني، متحققا بداية من الصوت إلى النص كله.

إن دراسة الإعجاز من حيث هذه الجوانب لا يخلو من تساؤلات تتعلق بـــ :

- اختلاف القراءات.
- اختلاف تقسيم بعض السور والآيات.
- اختلاف في ترتيب بعض السور.

يمكن من أجل تجاوز هذه المسائل :

- الاعتماد على أشهر القراءات وهي قراءة ورش وقراءة حفص.

- الاعتماد على أشهر الروايات وأرجحها في تقسيم السور والآيات، وهو أمر لا يتعدى اختلاف نطق بعض الكلمات وتقسيم بعض الآيات، فيكون الاستعانة بعلم الفواصل وهو علم يعرف بمبادئ الآيات وفواصلها وما اتفق على عدّه. فيحفظ النص القرآني من الداخل، تثبته أحاديث وردت في عدّ آيات القرآن ليتبين في الأخير أن ترتيب الآيات ضمن

سورها أمر توقيفي بأمر من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولم يكن اجتهادا من الصحابة رضوان الله عليهم.

معنى ذلك أن ترتيب الآيات والسور في الخطاب القرآني، يحمل أسرارًا، يمكن بالدراسة المتأنية، والتأمل الدقيق أن يكشف عن بعض مكامنها، تتريها لكتاب الله من الفوضى وسوء الترتيب بسبب الانتقال المفاجئ بين الآيات، كما يدعي بعض الطاعنين في الإسلام والمستشرقين.

فقد رأى بعض المستشرقين الذين يريدون الطعن في القرآن، أن كتاب المسلمين المقدس يتميز بـــ :

- سوء التنظيم بسبب كثرة الفجوات بين الآيات.
- كثرة الاستطرادات، وتعدد المواضيع في السورة الواحدة.
- اختلاف ترتيب التتريل عن ترتيب الترتيل.
- العلاقة العشوائية بين السورة وعنوانها.

وغيرها من الشبهات التي أراد هؤلاء إلحاقها بالخطاب القرآني، لكن من المستشرقين من كان منصفا، كما هو الشأن لجاك بيرك الذي رأى أن النظام الذي بنيت عليه الآيات والسور نظام خفي ordre caché يمكن بالدراسة المتأنية الكشف عنه بل إن تعدد مواضيع السور لا ينفي تماسكها وتلاحمها، حتى أنها تشبه الكلمة الواحدة التي لا يمكن أن تجزأ بعد ذلك[1].

من أجل ذلك يمكن الاستفادة من بعض المناهج العلمية اللغوية وغير اللغوية للكشف عن النظام الخفي الذي بني عليه الخطاب القرآني بداية من الصوت إلى الخطاب كله وربط المعنى بالمبنى.

---

1. انظر : JACQUES BERQUE – RELIRE LE QURAN - ED - ALBIN MICHEL - PARIS 1993 P 20 - 21

1. الإعجاز الصوتي

كان الجمال الصوتي في القرآن الكريم، أول شيء طربت له الآذان، واهتزت له القلوب، فلم يكن ممّا عهدته العرب من كلام شعر أو كلام نثر، واعترف بهذا حتى أعداء الإسلام.

قال الوليد بن المغيرة : "إنّي سمعت كلامًا من محمّد لا هو بكلام الإنس، ولا هو بكلام الجن، وإنّ له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمرٌ".

أدّى ذلك إلى اهتمام العرب والمسلمين بالجانب الصوتي في القرآن وهو ما جعلهم يتوصلون إلى الكثير من النتائج التي لم يعرفها علم اللغة الغربي إلاّ حديثًا، فكان للعرب والمسلمين السبق في الدراسات الصوتية.

أما حديثًا، فقد اكتشف الدارسون والإعجازيون الجدد، أن وضع الحرف في الآية، لا يقل أهمية عن وضع النجم في مداره.

قال تعالى : ﴿**فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه لقسم لو تعلمون عظيم * إنه لقرآن كريم**﴾ (الواقعة : 75-77).

"إنّه بمقدار ما نؤمن بالله وعظمته وبحكمته بمقدار ما نعلم من عظمة القرآن الكريم، هذه هي ماهية الرابط بين القسم والمقسم عليه، والقرآن بأحرفه وكلماته وجمله وآياته وسوره، وما فيها من حكمة الترتيب والتدبير"[1].

حتى الحروف المقطعة التي اختلف المفسرون في تأويلها، تعمل على حفظ القرآن من الداخل، ذلك أن هناك قانون إلهي يجعل تغيير أي حرف

---

1. عدنان الرفاعي، المعجزة، كشف إعجازي جديد في القرآن الكريم – الشهاب سوريا – ص. 13.

في النص القرآني تغييرًا للقرآن كله وتحريفا له. من ذلك كلمة بصطة في سورة الأعراف 69، وردت بالصاد بدل السين، ولا يمكن تغييرها، فعدد ورود أي حرف في النص القرآني مضبوط بشكل دقيق[1].

وعند النظر إلى النص من زاوية أخرى، يتجلى لنا أن بناء الآيات من الأحرف والكلمات، يحمل هو الآخر بعدًا من أبعاد هذه المعجزة، وكمثال عن ذلك قوله تعالى :

﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ (الذاريات، 49).

28 حرفا

﴿ففروا إلى الله أني لكم منه نذير مبين﴾ (الذاريات، 50).

29 حرفا

حيث يلاحظ أن عدد حروف الآيات تتابع وترابط ترابط القضايا التي تطرحها الآيتان المتتاليتان، بداية من النظر إلى المخلوقات التي خلقت على شكل زوجين إلى العلم بأن هذه الدنيا لها زوج آخر هو الآخرة، ولذلك فإن نظرته إلى قانون الزوجية يكون دافعا، لكي يفر إلى الله سبحانه وتعالى، ويتبع منهجه من هنا كانت الآية الأولى مرتبطة بالتي تليها من حيث عدد الأحرف {28 ثم 29} ومن حيث القضية التي تؤكد عليها، فالقضية الثانية نتيجة للقضية الأولى وتعقيب عليها، لتتبين أن العلاقة بين الآيتين علاقة صوتية وعلاقة دلالية.

وقد يتجاوز التوازن بين الحروف إلى التوازن بين الكلمات، يقول تعالى : **﴿ومن الناس مَن يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾**[2]

21–20 = < 13 كلمة.

---

1. حسن الجوهري – فضاء الانترنيت.
2. سورة الحج، 8.

﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا﴾[1]
22 - 21 = 13< كلمة.

يلاحظ تتابع بين الآيتين، وترابط من حيث عدد الكلمات، وترابط من حيث القضايا التي تحملها. يكون فيها الانتقال من العام إلى الخاص في علاقة منطقية تجعل العلاقات بين الآيات مبنية على ترتيب مقصود، يخفي من ورائه إعجاز صوتي يخدم ويرتبط بالإعجاز الدلالي والإعجاز العددي وغيرها من أوجه الإعجاز.

الترتيب المعجز في القرآن الكريم

اهتم العرب والمسلمون منذ القديم بالعلاقات بين الآيات وأختها وبين السورة والسورة الأخرى، وعرف ذلك بعلم المناسبات.

قال الشيخ ولي الدين الملوى : "قد وهم مَن قال لا يطلب للآي الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المفرقة وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلا وعلى حسب الحكمة ترتيبا وتأصيلا، فالمصحف على وفق ما في اللوح المحفوظ مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف كما أنزل جملة إلى بيت العزة"[2].

أُنزل القرآن منجما، ولو أنزل دفعة واحدة، لكان مادة ميتة لا حياة فيها. وكان أول ما أنزل على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم سورة العلق، لكن هذه السورة وردت في المرتبة 96 في ترتيب الترتيل.

---

1. سورة لقمان، 21.
2. جلال الدين السيوطي - الإتقان في علوم القرآن - المكتبة الثقافية بيروت 1973 - ج. 1، ص. 108.

حيث أن السورة هذه تعد 19 آية، وابتداء من هذه السورة إلى آخر القرآن يتبقى 19 سورة[1]، وقبل هذا يلاحظ أن البسملة تتكون من 19 حرفا، يتبين لنا إذن أن النظام الحرفي الذي سبق الإشارة إلى بعض جوانبه، يشمل الخطاب القرآني كله، ولا يتوقف عند حدود الآية أو السورة، إنما يكشف عن نظام دقيق في ترتيب أحرف وآيات وسور القرآن، تجعل الخطاب القرآني خطابا منسجما متلاحما أشد التلاحم. يؤكد ذلك لفظ القرآن نفسه، والسورة والآية، والتلاوة، والترتيل.

يلاحظ بداية أن رسم كلمة "قرآن" قريب جدا من رسم كلمة قران والتي تعني الوصل والربط والجمع بين عنصرين وعدة عناصر[2].

قرآنَ قران.

أما لغة، فإن من دلالات كلمة القرآن، إذا ما أعد الاسم مشتق من مادة قرن، فهو مأخوذ من قرنت الشيء، أي ضممته، أو هو مشتق من الفرد أي الجمع[3].

ومن دلالات السورة، القطعة من البناء، والمترلة بعد المترلة.

ومن دلالات الآية، علامة يعرف بها تمام ما قبلها وابتداءه[4].

بينما تعني كلمة الترتيل لغة ما يلي : يقال "ثغر مرتل أي مفلج مستوي النبتة، حسن التنضيد، والرتل : حسن تناسق الشيء[5].

---

1. فريد قبطني – طلوع الشمس من مغربها – ترجمة أحمد أمين حجاج، دار البراق بيروت – ص. 76.

2. المرجع نفسه ص. 180.

3. عبد اللطيف فايز دريان، التبيين في أحكام تلاوة الكتاب المبين. ط. 1، دار المعرفة بيروت 1999– ص. 22–25.

4. عن تأويل أسماء القرآن و السورة و الآية، أنظر أبو جعفر محمد بن جرير الطبري جامع البيان في تأويل القرآن، ط. 3، دار الكتاب العلمية بيروت 1997، المجلد 1 – الجزء 1، ص. 67 الى 72.

5. ابن منظور، لسان العرب، مادة رتل، دار صادر بيروت المجلد 11، ص. 265.

يتضح ممّا سبق انسجام غريب يستدل عليه من بنية الخطاب من أحرفه وكلماته والعلاقات بين الآيات والسور دلاليًا وصوريًا، كما يستدل عليه من الكلمات التي تمنح خصوصية أخرى للخطاب القرآني. فقد اختار الله تعالى لكتابه اسما ليس ككل الأسماء، وجاء تقسيمه إلى سور وآيات وفق ترتيب معجز يؤكده الإعجاز العددي والإعجاز الصوتي والعلاقات بين الآيات والسور - علم المناسبات بمنظومة واحدة. بينما تثبت الكلمات التالية : القرآن، السورة، الآية، الترتيل معنى الانسجام والتلاحم، تجعل العلاقات داخل الخطاب القرآني مبنية على منطق مقصود وترتيب معجز تكشف عنه الدراسة العلمية المتأنية. كما أن تعدد القراءات في النص القرآني، وتلاحم أنواع الإعجاز فيه دليل آخر على طاقة هذا النص، التي تكسبه صفة الخلود والبقاء عبر الأزمنة والعصور.